السابقة على الاحتلال تضبح حاجزا اجتماعيا كثيفا في مواجهة الغزو الخارجي . لكن الدلالة الاساسية هنا ، لم تتخذ بعد هذا البعد الشامل ، الذي نلاحظه في قصيدة درويش « سجل انا عربي » . حيث البعد الوحيد المسيطر هو بعد فانوني مئة في المئة .

« أعداؤنا — منذ ان كانوا — صيارفة ونحن — منذ هبطنا الارض — زراع »

في هذه العودة الاساسية الى دلالة الصراع ، يحاول طوقان صياغة معادلة الصراع العربي — الاسرائيلي ، المركزية . لكن هذه الصياغة لا تأتي الا بوصفها جزءا من مهمة نضالية . مقاومة محاولة الاقطاعيين بيع الاراضي للحركة الصهيونية . في هذه المقاومة يبرز البعد الاساسي للصراع . فمن جهة أولى هناك الفلاح الذي يتمسك بأرضه ، لانها وطنه الوحيد الذي لا يستطيع الابتعاد عنه ، ومن ناحية أخرى هناك زمرة من الاقطاعيين الذين ما زالوا على نمط الاقطاع العثماني ، بعد أن فقد هذا الاقطاع اساسه الذي يضبطه ، بوصفه اقطاعا عسكريا . فتأتي قصيدة طوقان هذه، لترسم اطراف المعادلة بشكل واضح لا لبس فيه :

« باعوا البلاد الى اعدائهم طمعا بالمال ، لكنما أوطانهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع أرغمهم والله، ما عطشوا يوما ولا جاعوا »

ثم تنتهي القصيدة في بيت يلخص ابعادا جديدة لمعادلة الوطن . فاذا كان الوطن بالنسبة لهؤلاء لا يعني شيئا محددا ، فان موت الفلسطيني يعني له اشياء كثيرة . فالانسان هو الارض وهي تتحرك في الزمن . لكن الشعر يأخذ من هذه الوجهة اكثر عناصرها بساطة ومباشرة .

« فكر بموتك في أرض نشأت بها واترك لقبرك أرضا طولها باع »

اذا اخذنا هذه القصيدة ، التي اقتطفنا بعض أبياتها هنا ، كوحدة متكاملة ، فاننا نكتشف انها تتحرك في مستويين مترابطين . مستوى الدلالة السياسية المباشرة التي تقود الشعر الى افتراض دوره الاساسي بوصفه محرضا اجتماعيا . ومستوى الدلالة غير السياسية التي تحاول تمثل دور الفلاح ، وعلاقته الحميمة بالارض . لكن العلاقة بين هذين المستويين ليست علاقة تكاملية ، كما نفترض عندما نناقش قصيدة تحمل طموحا سياسيا . بل هناك غلبة واضحة للعنصر الاول ، الذي يقوم باستخدام العنصر الثاني بشكل ذرائعي . ان ذرائعية هذه العلاقة تكشف اين يقع التركيز الاساسي للشعر . وما هي العلاقة بين افق القصيدة وعمقها . فحين نفترض علاقة متكاملة بين هذين العنصرين ، نكون قد وصلنا الى افتراض نوع من الابتعاد بين المستويات . أي ان المستوى الايديولوجي — السياسي لا يندغم بشكل كامل بالمستوى الفني . لكننا هنا امام اندغام كامل . حيث افق القصيدة يشكل فعاليتها . فهي تتفكك كبنية وتتوحد كمخاطبة سياسية في اذهان سامعيها . تأتي دلالتها السياسية لتشكل **وثيقة** في الحاضر او وثيقة تأريخية على وعي محدد . ان هذين الطابعين ، التفكك والوثيقة ، قد يفسران على انهما آتيان من طبيعة بنية القصيدة الخليلية ، هذا صحيح اذ بقينا عند حدود النقد الانطباعي . فالانطباع الاول الذي نخرج منه الان وبعد ان استطاعت الحركة الشعرية المعاصرة خلخلة ثوابت القصيدة الخليلية . لكننا اذا قرانا بعض الشعر غير الخليلي قراءة داخلية ، لاكتشفنا نفس البعدين : التفكك والوثيقة . غلبة دلالة واحدة هي الدلالة المباشرة على بقية الدلالات التي تحملها القصيدة . ان هذا ليس مجرد مسألة شكلية . انه مسألة تتعلق **بالدور** المفترض الذي للشعر .